الفصل الخامس
وأخـــــيراً...

لقد كتب داروين منذ حوالى المائة وخمسين عاماً فى الفصل السادس من كتابه "أصل ألأنواع"، يقول: (إنى لا أشُكّ بأنّ اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى درجة أنى حتى اليوم، لا أفكر بها إلا وتعترينى هَزّه)!!!

كان هذا النّص فى الفصل السادس - باب مشكلات النظرية -، وظهر فى الترجمة العربية طباعة سنة (*1959*)، ومما يلفت النظر أنّ هذا النّص بالكامل قد جرى حذفه من طبعة مطبعة النّهضة[1] التى قام بترجمتها "إسماعيل مظهر"!!!!.

فهل يمكن لعاقل أن يؤمن بنظريّة واهية كتلك على أنها حقيقة واقعة يجب الإيمان والتسليم بها، فى حين أنّ من نُسِبَ إليه ابتداعها واختلاقها، ومن عُرفَ أنه عَراب النظرية ومرجعها، حتى أنها قد اشتهرت بنسبتها إليه، يهتز للاعتراضات التى وَرَدَت، أو التى سَترِد على النظرية؟ ولا أخال عاقل سَيُفَسِرَ الهَزّة التى ستعترى داروين، أنها هزة الواثق المطمئن إلى صحة وسلامة نظريته!!!

هذا علاوة على أنه بعد مرور قرن ونصف على ابتداع تلك النظرية، وعلماء التطور مستمرون فى أبحاثهم، دائبون نشطون من أجل إثباتها، ورغم ذلك فإنهم عاجزون تماماً عن إثبات واقعيّة التطور المادى ومصداقية نظرياته، رغم الأبحاث الطائلة التى قاموا بها، ورغم الإمكانات الهائلة التى وضعت تحت تصرفهم، ورغم تسخير العِلم والمعامل والمختبرات، ورغم

(*1*) المرجع، الصفحات (328 - 390).

الخدع والتزويرات التى قام بها البعض الآخر منهم، ورغم توجيه الإعلام بكافة وسائله لصالحهم، وذلك ما

اعترف به مؤلف كتاب "سنة العِلم" المطبوع باللغة الإنجليزية عام (*1966*) حيث يقول:

(على الرغم من النجاحات التى أحرزها عِلم الآثار، فإنّ العلماء ما زالوا فى بداية المهمة العظيمة التى يتوخونها، ونعنى بذلك مَعْرِفَة تاريخ الإنسان.)

كما أنّ التناقض واضح جداً فى أقوال وتصريحات مشاهير علماء النظرية المتحمسين لإثباتها، ففى مطالعة كتاب العالِم "دوبز هنسكى *Dobzhansky .T*" المعرف باسم "الأساس الحيوى لحرية الإنسان" نجده يقول بصراحة: (لقد ثبت بما لا يدع مجال للشك، حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، بأنّ التطور أمر واقع...)[1] فى حين أنه بعد صفحتين من هذا القول يرجع ليقول وفى نفس الكتاب: (مما لا شَكّ فيه أنّ المظاهر التاريخية المتممة لحلقات التطور ما زالت غير معروفة تماماً... ولا نستطيع أن نرى الأسباب التى قرّرت تطور النّوع الإنسانى إلا من خلال ضَباب.)[2]

فهو من جهة يؤكد ويجذم بما يرغبه ويريده من أنّ التطور هو حقيقة وأمر واقع يجب الاعتراف والإيمان به، نجده من جهة أخرى يعترف ويقر بأنّ المظاهر التى قرّرت حلقات هذا التطور غير معروفة تماماً!! بل وأنه يراها من خلال ضباب!!! وهل يرى شيئاً ثابتاً واضح المعالِم من خلال ضباب؟ وما أخاله يقصد إلا أنّ كلّ تلك النظريات المادية ما هى إلا سَراب خادع تشبث به وتعلق تائهون هائمون على وجوههم.

أما "الموسوعة البريطانية" فتقول: (ليس لدينا أدنى شَك فيما يتعلق بكون

(*1*) خلق لا تطور، صفحة (17)، نقلا عن: *The biology basis of human freedon*.
(*2*) المصدر السابق.

التطور حقيقة واقعة، وأنّ الأدلة عليها فى الوقت الحاضر غير قابلة للنقض.)[1]

غير أنه ورغم هذا التأكيد القاطع على رجحان أدلتهم التى لا يتطرق إليها النقض أو الشّك، نجد أنّ نفس الموسوعة المذكورة آنفاً وفى موضع آخر تصف تلك الأدلة الغير قابلة للنقض قائلة: (إنها غير كافية، وغير متسلسلة، بل أنّ بها كثير من الفجوات...)[2] وتردف نفس الموسوعة قائلة: (إننا ما زلنا لا نعرف شيئاً عن هذه الظواهر الحيوية التى قررت هذا التغيير)[3]

أما "سير بيير *Sir Gavin Beer*" فلم يتردد بأن يقول فى كتابه الأخير المطبوع بعنوان "شارل داروين" مايلي: (لقد أعلن داروين بأنّ الأدلة سوف توجد فى يوم من الأيام، وقد أتى هذا اليوم لأنّ سلسلة المستحاثات التى مَرّ ذكرها تقدم لنا الأدلة القاطعة على أنّ الإنسان ثمرة التطور)[4]

غير أنّ هذا التأكيد على الأدلة القاطعة التى ادعاها "بيير"، لم يمنع عالماً آخر هو "د. كلارك *Le Gros Clark*" أن ينقض ذلك الإدعاء قائلاً: (إنّ العثورعلى مستحاثات لأجدادنا الحقيقين، أوحتى العثور على نماذج الجماعات الجغرافية المحليّة التى انبثق عنها أجدادنا الحقيقيون أمر احتماله من الضعف بحيث نرى من العبث توقع إمكان حصوله.)[5]

إنّ ثبات نظرية داروين وشبيهاتها من نظريات التطور المادي، لهو أوهى من خيط العنكبوت، ولا يستطيع عاقل أن يطلق على نظرية التطور المادى صفة الحقيقة العلمية، لأن تلك النظرية هى فى حقيقتها أبعد ما تكون

(*1*) المصدر السابق.
(*2*) خلق لا تطور، صفحة (17).
(*3*) المصدر السابق.
(*4*) المصدر السابق.
(*5*) المصدر السابق، صفحة (18)، نقلاً عن: غرو كلارك، أدلة المستحاثات على تطور الإنسان.

عن كونها من الحقائق، بل هى تخيلات وأوهام لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وقد قرّرَ ذلك "د. كلارك" وهو أحد علماء التطور المشهورين، ومن أشهر المتحمسين لها، بالعبارات التالية: (من المؤسف أن تكون كل الأجوبة التى طرحت لمعرفة أصل الإنسان، تقوم على دلائل غير مباشرة، وأكثرها يقوم على فرضيات.)[1]

ونقص الأدلة أو حتى انعدامها، هو رأى أخبر به معظم علماء التطور، وممن اعترف بذلك "رئيس الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم"، حيث قال بصدد حديثه عن التطور:

(تعال معى لنقوم برحلة فرضية فيما قبل التاريخ، ولنتصوّر الزّمن الذى ظهر فيه نوع الإنسان "سابين *spiens*"، ولنقطع بسرعة الآف السنين التى تعتمد فى القسم الأكبر من معلوماتنا الحاضرة عنها على الحدس والتخمين والاستنتاج، إلى أن نصل إلى فترة الوثائق التاريخية التى تسمح لنا بالتقاط بعض الوقائع...)[2]

وأول عصر الوثائق، مضت الآف السنين من عمر الإنسان قبل أن تبدأ - على حد زعمهم - وعلمائهم يزعمون بأنّ مراحل التطور التى يظن بأنها قد سبقت عصر الوثائق، والتى لم يرها الإنسان الحديث رؤية العين، إنّما بُنيت على الحدس والظن والشَك والتأويل والتفسير والبحث النظرى الافتراضي، أى هى بالتالى عبارة عن مجموعة من الفرضيات.

أمّا بالنسبة لعمدة كتبهم، وأشهر مراجعهم ومصادرهم، وهو كتاب عرابهم الشهير "داروين" صاحب النظرية المسماة باسمه وهو كتاب

---

(1) المصدر السابق.
(2) المصدر السابق، نقلاً عن مقال للمذكور نشر له فى مجلة " العلوم " الأمريكية.

"أصل الأنواع"[1] فقد أبدى أحد مشاهير العلماء الإنجليز بالملاحظة التالية عليه:

(لقد أحصى ما جاء فى كتاب "أصل الأنواع" فوُجِد أكثر من *800* جملة ارتيابية، مثل قوله: قد نستطيع أن نستنتج، قد يمكن أن يكون.... إلخ، فالمرء الذى يبحث ليفهم لا يلبث عند سماع هذه العبارات الارتيابية أن يقع فى حيرة من هذه

التناقضات، إذ يرى بعض العلماء يؤكدون على التطور بصراحة، ويرى آخرون يعترفون بأنّ كل الاستنتاجات هى فرضية)[2]

وهذا التناقض هو الذى دفع العالِم الفسيولوجى الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية "تهميسيان *Tahmisian .N.T*" إلى القول: (إنّ العلماء الذين يؤكدون على أنّ التطور واقع علمى هم منافقون، وأنّ ما يروونه من أحداث إنّما هو من الشعوذات التى ابتدعت ولا تحتوى على نقطة واحدة من الحقيقة) إلى أن يصف تلك النظرية بأنها:

(خليطة مضطربة من الأحاجى وشعوذة الأرقام)[3] أما رئيس فرع العلوم بإحدى الجامعات "كلوتز *Klotz .W .J*" يقول: (إنّ الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة)[4]

وذكر "ويكرز شامبرز *Wikers Chamber*" فى كتابه "الشهادة *Witness*" حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته، ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفت أذناها نظرهُ، فأخذ يفكر أنّ من

(*1*) The *Origin of Species, Sharles Darwin*.
(*2*) خلق لا تطور، صفحة (19).
(*3*) المصدر السابق.
(*4*) المصدر السابق، صفحة (20).

المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأذن بمحض اتفاق، بل لا بد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة، لكنه طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر إلى أن يؤمن بالذات التى أرادت فدبرت، لأنّ ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة. (1) ويعلق الدكتور "تامس ديودباركس" على ذاك الحادث بقوله: (إننى أعرف عددا كبيراً من أساتذتى فى الجامعة، ومن رفقائى العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية فى المعامل.)(2)

يتضح من تلك الرواية، أنّ الأدلة مهما كانت مقنعة وقاطعة، فمن الممكن ألا تقنع بعض الناس، لأن أبواب عقولهم المادية موصدة دون أى كلام عن الله والإيمان، ومن المؤكد أنّ موقفهم هذا ليس لأن الإستدلالات والبراهين المطروحة أمامهم ضعيفة أو عاجزة، بل إنّ ذلك راجع إلى تعصبهم المقيت ضد كل ما يوصل للإيمان، ويشير إلى ذلك العالِم البريطانى الشهير "سير جيمس جينز" قى كتابه "عالم الأسرار" حيث مرّ معنا سابقاً قوله: (إنّ فى عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادى للحقائق)(3)

إنّ غريزة التدين هى غريزة فطريّة فى الإنسان، لايخلو منها أى إنسان كان، ومن أبرز مظاهرها التقديس، وأمثال هؤلاء، يكابرون ويكبتون تلك الغريزة، فيصرفون مظهر التقديس المنبثق عنها إلى تقديس الطبيعة أوتقديس العلم أوتقديس مظاهر معينة، ليصرفو مظهر الغريزة لتقديس تافه بدل عبادة الله، فالتعصب الأعمى للتفسير المادى للحياة له جذور عميقة، يصعب معها اثناؤهم عنها حتى بالأدلة الدامغة، ويعلق على ذلك العالِم

---

(1) الإسلام يتحدى، صفحة (42)

(2) المصدر السابق، نقلاً عن: *The Evidence of God, p. 73 - 74.*

(3) المصدر السابق، نقلا عن: *Mysterious Universe, p. 189.*

الأمريكى "جورج بلونت": (إنّ كون العقيدة الإلهية معقولة، وكون إنكار الإله سفسطة، لا يكفى لإختيار الإنسان جانب العقيدة الإلهية، فالناس يظنون أن الإيمان بالله سوف يقضى على حريتهم، تلك الحرية العقلية التى استعبدت عقول العلماء واستهوت قلوبهم، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم.)[1]

يتضح مما سبق أنهم بتعصبهم اللاعقلانى الساذج للتطور المادي، قد قصدوا منه بعناد عدم الإيمان بالحقائق رغم سيطرتها علىعقولهم أحياناً، صارفين بذلك ثوران غريزة التدين المتطلب الإشباع إلى إشباع منحرف، ولا أرى تعليقاً على ذلك أبلغ من المثل العربى العامى القائل: "عَنزَه وإن طارت" وحقاً فإنّ الكفر فى حقيقته لا يعدو أن يكون إلا عِناداً!!!

ويرد الأستاذ "أ. كريسى موريسون" على نظريات التطور المادى مناقشاً:

(إننا نستطيع أن نضع نظرية تبين كيف تطورت جميع الكائنات الحية من الخلية الأصلية، ولكن العِلم يقف عند هذا الحد، ويمكننا أن نتفق مع ذوى العقول الممتازة الذين أدت بحوثهم المضنية إلى إعطائنا فكرة حقيقية عن الوقائع الطبيعية للحياة المادية، ولكننا غير ملزمين بالوقوف حيث وقفوا، لأنهم لم يتبين لهم صنع الخالق فى كل ذلك.

إنّ كون الإنسان فى كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم، [2] يدل على أنّ الدين فطرى فيه، ويجب أن يقر العِلم بذلك، وسواء أحاط الإنسان صورة محفوره بشعوره بأنّ هناك قوّة خارجية للخير أو الشّر أم لم يفعل،

---

(1) المصدر السابق، صفحة (43)، نقلً عن: *Blount, the Evidence of God, P. Gorge H. 130.*

(2) إنّ الكاتب يشير هنا إلى غريزة التدين الموجودة فطرياً لدى الإنسان، والناتجة عن شعوره بالنقص والعجز والاحتياج.

فإنّ ذلك ليس هو الأمر المهم، بل الحقيقة الواقعة هى اعترافه بوجود الله، والذين أتيح لهم العِلم بالعالَم لا يحقّ لهم أن ينظروا نظرة الازدراء إلى فجاجة الذين سبقوهم أو الذين لا يعرفون الآن الحق كما نراه.

بل أننا على العكس من ذلك يجب أن تأخذنا الرّوعة والدّهشة والإجلال لاتفاق البشر فى نواحى العالم عن البحث عن الخالق والإيمان بوجوده! أوليست روح الإنسان(1) هى التى تشعر باتصالها بالله؟ أم نخشى أن نقول بأنّ الحافز الديني(2) الذى لا يملكه إلا الإنسان هو جزء من هذا الكائن الواعى كأيّة صفة أخرى من خصائصه؟ (3) إنّ وجود الحافز هو برهان على قصد العناية الإلهية(4) ولا يقل شأناً عن عقل الإنسان المادى الذى يكمن فيه كونه الحساس. (5)

إنّ أى ذرة أو جزيء(6) لم يكن له فكر قط، وأى إتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأى أبداً، وأى قانون طبيعى لم يستطع بناء كاتدرائية، ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطيعه جزئيات المادة بدورها، ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالَم، فما هو هذا الكائن الحي؟ هل هو عبارة عن جزئيات وذرات؟ أجل، وماذا أيضاً؟ شيء غير ملموس، أعلى كثيراً من المواد

---

(1) الروح هنا: إدراك الإنسان لصلته بخالقه.
(2) غريزة التدين.
(3) كالعقل والإدراك والتكلم وانتصاب القامة مثلاً.
(4) إنّ الدين الإسلامى وكل الأديان السماوية قبل تحريفها، تدعو الإنسان إلى استعمال العقل والتفكر فى الموجودات للإيمان بالله تعالى. والإسلام يرفض ما يسمى (إيمان العجائز) الذى لا يقوم على التفكر وإعمال العقل.
(5) إنّ الإنسان من دون المخلوقات جميعاً - بما فى ذلك جميع الحيوانات - هو الوحيد الذى يملك العقل المميز، والذى بواسطته يحكم على الواقع أو الشيء ما هو، وذلك بنقل الواقع إلى الدماغ بواسطة الحواس مع وجود معلومات سابقة تفسر هذا الواقع. وهذا ما يطلق عليه (العملية التفكيرية).
(6) *A tom or Molecale*.

لدرجة أنه يسيطر على كل شيء، ومختلف جداً عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالَم، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه. وهو فيما نعلم ليست لـه قوانين تحكمه. (1)

إنّ روح الإنسان هى سيدة مصيره، ولكنا نشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها، وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه، فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه أفضل لتكوين المادة، لا لشيء إلا لأنه لا يعرف كنهه بأنبوب إختبار، فهو إنما يزعم زعماً لا يقوم على برهان، إنّه شيء موجود، يظهر نفسه بأعماله وتضحياته وبسيطرته على المادة، وعلى الأخصّ بقدرته على رفع الإنسان المادى من ضعف البشر وخطئهم إلى الإنسجام مع إرادة الله.

هذه هى خلاصة القصد الرّباني، وفيها تفسيرات للإشتياق الكامن فى نفس الإنسان، (2) للإتصال بأشياء أعلى منه ومن نفسه، وفيها كشف عن أساس حافزه الديني، هذا هو الدين. (3)

والعِلم يعترف باشتياق الإنسان إلى أشياء أسمى منه ويقر بذلك، غير أنه لا ينظر نظرة جديّة إلى مختلف العقائد والمذاهب، وإن يكن يرى طرقاً تتجه إلى الله، والذى يراه العِلم ويقرره جميع المفكرين، هو أنّ الإعتقاد العام بوجود الله لـه قيمة لا تقدر.

---

(1) المقصود هنا هو الله تعالى خالق القوانين.

(2) المقصود هنا: غريزة التدين، الناشئة عن الشعور بالعجز الطبيعى فى الإنسان، وحاجته للخالق المدبر، وربط ذلك بالإيمان بوجود الآخرة حيث يحاسب الإنسان على ما قدمت يداه، وذلك ما يدفع الإنسان إلى ما يسمى (مزج المادة بالروح) الذى يدفع الإنسان للتقيد بما أمر الله والابتعاد عما نهى.

(3) هذا هو الدين: اعتقاد جازم، وتقيد بالأحكام التى يفرضها هذا الاعتقاد.

إنّ تقدم الإنسان من الوجهة الأخلاقيّة وشعوره بالواجب إنما هو أثر من آثار الإيمان والإعتقاد بالخلود، وأن غزارة التدين لتكشف روح الإنسان، وترفعه خطوة خطوة حتى يشعر بالإتصال بالله، وإنّ دعاء الإنسان الغريزى لله بأن يكون فى عونه وخاصة فى ساعات الشّدائد لأمر طبيعي، وإنّ أبسط صلاة تسمو به إلى مقربة من خالقه، إنّ الإنسان لا يقوم وحده)[1] ويستطرد "موريسون" متسائلاً عن سر الحياة، وهل هى من صنع المادة، فيقول: (إنّ المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها، ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أى اتفاق فى الظروف الكيماوية والطبيعية قد تخلقه المصادفة يمكنها أن تأتى بالحياة إلى الوجود)[2]

وله أيضاً: (فالحياة هى المصدر الوحيد للوعى والشعور، وهى وحدها التى تجعلنا ندرك صنع الله ويبهرنا جماله، وإن كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوه.)[3]

وفى إثبات بطلان نظرية المصادفة، يقول "الدكتور ايرفنج وليام نوبلوتشي"[4]

(إنّنى أعتقد فى وجوده سبحانه وتعالى لأنى لا أستطيع أن أتصور أنّ المصادفة وحدها تستطيع أن تفسّر لنا وجود الألكترونات والبروتونات الأولى، أو البروتوبلازم الأول، أو الذرات الأولى، أو الأحماض الأمينية الأولى، أو البذره الأولى، أو العقل الأول، إننى أعتقد فى وجود الله، لأنّ وجوده القدسى هو التفسير المنطقى الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا

---

(1) العلم يدعو للإيمان، الصفحات (191 - 196).
(2) المصدر السابق، صفحة (96).
(3) المصدر السابق، صفحة (88).
(4) أيرفنج وليام نوبلوتشي: أستاذ العلوم الطبيعية، حاصل على درجه الدكتوراه من جامعة أيوا، أخصائى الحياة البرية فى الولايات المتحدة، أستاذ العلوم الطبيعية فى جامعة ميتشجان منذ سنة 1945، أخصائى فى وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري.

الكون التى نشاهدها)[1]

أما أخصائى الكيمياء الجيولوجية "واين أولت"[2] فيدلى بدلوه فى الموضوع بقوله: (ويسلم كثير من الناس تسليماً منطقياً بوجود الغاية أو الحكمة من وراء الظواهر الطبيعية، ولا شك أنّ اعتقاد وجود اله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً عن النشأة والإبداع والغرض أو الحكمة، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر، أما النظريات التى ترمى إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة، فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد إكمال الصورة والبعد بها عن التشويه، ولكن حتى بغضّ النظر عن الإعتبارات الدينية عامة، نجد أنّ فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة ولا شك، بل لإنّ ذلك النظام البديع الذى يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء)[3]

وفى النّظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيز، وهو ما عَنوَنَ به مقاله يقول "الدكتور إدوارد لوثر كيسيل"[4]

(... فالعلوم تثبت بكل وضوح أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا

---

(1) الله يتجلى فى عصر العلم، صفحة (54).

(2) واين أولت: أخصائى الكيمياء الجيولوجية، حاصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا، زميل بحوث بالمعمل الكيماوى الجيولوجى بنيويورك، عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية.

(3) الله يتجلى فى عصر العلم، الصفحات (131 - 132).

(4) د. إدوارد لوثر كيسيل: أخصائى فى علم الحيوان والحشرات، حاصل على دكتوراه من جامعة كاليفورنيا، أستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو، متخصص فى دراسة أجنة الحشرات والسلامندر والحشرات ذوات الجناحين.

يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة، ومعنى ذلك أنّ الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون، ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير فى طريقها، فاننا نستطيع أن نستنتج أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياّ، وإلا لإستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود، وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلى أنّ لهذا الكون بداية. وهى بذلك تثبت وجود الله، لأنّ ما لـه بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بد لـه من مبدئ، أو من محرك أوّل، أو من خالق هو الإله... ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أنّ لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة، والواقع أنّ الكون لا يزال فى عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته، واليوم لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يأمنوا بفكرة الخلق أيضاَ، وهى فكرة تستشرق على سنن الطبيعة، لأنّ هذه السنن إنما هى ثمرة الخَلق، ولا بد لهم أن يسلموا بفكرة الخالق الذى وضع قوانين الكون، لأنّ هذه القوانين ذاتها مخلوقة، وليس من المعقول أن يكون هناك خَلق دون خالِق: هوالله... ولو أنّ جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والعِلم والبعد عن التّحيز الذى ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حَرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سيسلمون دون شَك بوجود الله، وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق، فدراسة العلوم بعقلٍ متفتح سوف تقودنا بدون شّك إلى وجود السبب الأول

الذى هو الله.)[1]

وفى معرض حديثه عن الانتخاب الطبيعي، فى نفس المقال، يستطرد قائلاً:

(..... والانتخاب الطبيعى هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور، كما أنّ التطور هو أحد عوامل عملية الخلق، فالتطور إذن ليس إلا أحد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوي، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه، ولا شك أنه من خلق الله وصنعه، والكائنات التى تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعى قد خلقها الله أيضاً كما خلق القوانين التى تخضع لها، فالانتخاب الطبيعى ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاَ وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التى تسلكها بعض الكائنات فى سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة، أما الأنواع ذاتها التى يتم فيها الانتقاء فإنها تنشأعن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون أو يريدوننا أن نعتقد)[2]

وفى مقال بعنوان "الكشوف العلمية تثبت وجود الله" كتب عالِم الطبيعة، الدكتور "جورج ايرل دافيز"[3]:

(ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الإلتجاء إلى الطرق المادية وحدها، إذ لم يقل أحد بأنّ الله مادة حتى نستطيع أن نصل إليه بالطرق المادية، ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والإستنباط

---

(1) المصدر السابق، الصفحات (27 - 28).
(2) المصدر السابق، صفحة (29).
(3) د. جورج ايرل دافيز: عالم الطبيعة، حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة منيوستا، رئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ببروكلين، أخصائى فى الإشعاع الشمسى والبصريات الهندسية والطبيعية.

مما نتعلمه ونراه، فالمنطق الذى نستطيع أن نأخذ به، والذى لا يمكن أن يتطرّق إليه الشَك، هو أنه ليس هنالك شيء مادى يستطيع أن يخلق نَفسَه، وإذا سلمنا بقدرة الكون على خَلق نفسه فإننا بذلك نصف الكون بالالوهية، ومعنى ذلك أن نعترف بوجود إله، ولكننا نعتبره إلهاً مادياً وروحياً فى نفس الوقت، وأنا أفضِل أن أومن بإله غير مادى خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه أياديه، دون أن يكون هذا الكون كفواً له.

إنّ التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون، هو ذاته شاهد على وجود الله. فمن جزئيات بسيطة ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صور معينة وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشرى عن الإحاطة بمدى إبداعها. وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حِسٌ ولا يتصور صغره عقل، قوانينها وسننها وما ينبغى لها أن تقوم به أو تخضع له.

هذه أدلة كافية، ولكن هنالك ما هو أشد إعجازاً وأكثر دلالة على وجود الله... إنّ كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الإستدلال بأنّ الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها.)[1]

كلما تعمق العلماء المشاهير، والعباقرة الأعلام، أصحاب الفكر النّير، فى أبحاثهم العلمية، تتضح لهم الحقيقة الثابتة القاطعة، وهى خطأ وضلال نظريات التطور المادي، مما يأكد لهم قطعية الحقيقة الثابتة وهي: أن الخلق قد تَمّ على يد الخالق المبدع المدبّر، وهذا هو فحوى ما صرّح به العالِم الدكتور "شارل ريشيه" عضو المجمع العلمي، مدرس الفيزيولوجيا فى

---

(1) الله يتجلى فى عصر العلم، الصفحات (40 - 41).

جامعة الطب الفرنسية، فى مقدمة لكتاب "الظواهر النّفسية" بصورة مبطنة وعاجزة وغير جريئة: (ولماذا لا نصرح بصوت جهوري: أنّ هذا العِلم الذى نفخر به إلى هذا الحَد ليس فى حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء، وأما حقائقها فتفلت منا، ولا تقع تحت حواسنا، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى أن تلم بها عقولنا.)[1]

لقد وصف الفيلسوف الإنجليزى "سبنسر *Spencer*"[2] الداروينية - وهو من أشهر دعاتها - بأنها نظرة مادية، فهى لا تستعين فى تفسيرها الأشياء والوقائع بغير المادة، وبالتالى لا توافق على وجودٍ غير مادى فى شيء من مظاهر الكون، وإنما تركز اعتمادها على أساس قوانين المادة وتفاعلاتها فحسب، فى شتى مجالات الحياة، فإذا درست الإنسان مثلاً جنحت إلى شرح وتوضيح القوانين التى بها تستجيب الأشياء لبيئاتها وتتفاعل معها فى عملية مادية طويلة استغرقت ملايين السنين، بدأت بتطور الأميبا لتنتهى بالإنسان الحاضر بجسمه المادى وعقله المدهش. فالمادة فى نظرهم هى الوحيدة وهى المتنفذة وهى الفاعلة بتوجيه من قوانين التطور التى هى وحدها المتحكمة والمسيرة للمادة، لتظهر أولاً فى وحيدة الخلية، ثم فى المركبات البدائية، لتتبعها فى الأحياء المعقدة التركيب، وأخيراً لتنتهى فى الإنسان الممتاز عن غيره من المخلوقات بعقله وإدراكه، وبتعبير أدق: فى عقل الإنسان ذاته... وهذه هى الحلقة الأخيرة من سلسلة التطور فقط، فيها من الغموض والإبهام مما يجعل الداروينية تتخبط فى ظلام دامس.

(*1*) عن كتاب: الظواهر النفسية، لمؤلفه " ماكسويل " النائب العام فى مقاطعة بوردو الفرنسية.

(*2*) هيربرت سبنسر Herbert Spencer: (1820 - 1903)، فيلسوف إنجليزي، يعتبر احد أبرز القائلين ب (الداروينية الاجتماعية) آمن قبل داروين بتطور الأنواع من أشكال بسيطة إلى أشكال معقدة. أشهر آثاره (الفلسفة التركيبية).

والسّر فى ذلك أنّ موضوع العقل البشرى يعتبر لـلآن سِراَ من الأسرار التى لم يهتدِ العِلم إلى حقيقته، ولم يتوصّلَ أبداً إلى حَلّ أسرار وحقائق هذا اللغز المحيّر.

فإذا جاز لأحَدٍ أن يؤمن بالتطور المادى حتى يصل إلى الإنسان، فإنّ أى عاقل لا يمكن أن يستوعب كيف تطور هذا الإنسان من بهيمى - كما يزعم الرويبضات[1] ممن يَدّعون العِلمَ - إلى إنسان عاقل مميز، يُدرِكُ الأدلة ويحكم عليها بعقله، هذا العقل الذى هو السّبَب فى إبداع الإنسان فى العلوم والصناعات والآداب والفلسفات؟

وفى موضوع العقل البشرى يتحدّث الدكتور أحمد البطراوى فى حيرة وعجب قائلاً:

(... ولا شَكّ أنّ استحداث الحياة من الجماد سِرٌ كانَ ولا يزال محجوباً عن بصيرة العلماء، ولكنَه ليس بالسّر المحير، فمثله ولا يقل عنه روعة ولا عجباً استحداث العقل البشرى المبدع فى واحد من ذلك الحيوان الذى حَيّرَ استحداثه أبا العلاء، [2] وهكذا يكون استحداث حيوان عاقل هو الإنسان أدعى للحيرة والعجب مرتين، ولعَلّ هذا هو السّبب فى أنّ دراسة الإنسان لنفسه كانت تسير على مهل وكان خطوها وئيداً، وهو فِعلاً ما زال حتى الآن فى حيرة من نشأة الحياة، وفى عجب من نشأة عَقلِه)[3]

---

(1) الرويبضات: جمع رويبضة، وهى تصغير كلمة رابض، والتاء هى للمبالغة وليس للتأنيث: وهو الرّجل التافه يتكلم فى أمور العامة. وفى حديث الرسول ρ " وينطق فيهم الرويبضة... "

(2) يشير الكاتب لأبى العلاء المعرى يصف فيه الإنسان حيث يقول: والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد والبيت من قصيدة لـه مطلعها: غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنم شادي.

(3) الدكتور أحمد البطراوي، الجنس البشرى فى معرض الأحياء.

وما دام العِلم الحديث قد عَجِزَ وفشلَ فى أن يعرف من طبيعة العَقل شيئاً يمكنه التأكيد عليه، فَإنّ كل محاولاتهم الهادفة إلى تفسير العقل ليست سوى افتراضات متَشَككَة مُتَأرجحة، وحَلّ لنظريات واهية يرتاب العِلم فى صحتها، لذا فلا يمكن بحال أن تتصف أحكام العاجزين بالصّحَة المطلقة، وإنّ أوهى تفسيرات فى العقل كانت نظريات وتفسيرات الماديين حيث تخبطوا وعجزوا عَجْزاً واضِحاً فى تفسير ماهيته أو الوصول إلى حقائق رموزه وأسراره.

أمّا من أدرك نِعمَة العقل الذى وَهَبَه إياهُ من فَطَرَهُ، فهو يَسْتَعْمِلَهُ فى تمييز الخطأ من الصواب، والحَقّ من الباطل، يستعمِلَه بعمق واستنارة تامة، بَعْدَ تمعنه فى فى أسرار الكائنات الحيّة، والقوانين التى تُسَيِرَ وجودها ونموها وتكاثرها، والقوانين التى فُرِضَت على المخلوقات جميعاً من كائنات حيّة أو حتى من جمادات، تُسَيِرَها بنظام بديعٍ دقيق ومتوازن، ليصلَ بذلك إلى الحقيقة القطعيّة وهى التّصديق الجاذم المطابق للواقع بأنّ كلّ تلك القوانين والعقول والمخلوقات قد كونها وأبدعها وفرضها خالق مدبر هو الله تعالى.

يعلِّق "أدموند و. سينوت" على عمليات البحث عن تفوق الإنسان العلمى وتطوره ومحاولات علماء الآثار والأحافير الكشف عن مكنوناتها، فى مقال له بعنوان "إبن الطبيعة الثائر" ورد فى مقدمة كتاب "أصل الأنواع" **حيث قال**:

(لم تكن قولة الشاعر "بوب" - بأنّ العِلمَ بالإنسان، أمثل سبيل بالإنسانيّة - بأبين قيمة، فى أى وقت منها فى عصرنا هذا، ففى مستوى من مستويات العِلم، نجد أنّ الإنسان موضع البحث الناشط الدّقيق، إحتفرت عظام أسلافه من جوف ألأرض لكى تُستَكنَه منها الوسيلة التطورية التى من طريقها

وصـل ألـى مكانتـه العليـا فـى هـذا الـزمن، أمـا العديـد الـوافر مـن المقومات التى تقوّم ذاته، فقد درست بوسائل من علم الوظائف حـادة بـاترة، ومضـى عِلم النّفس يكشف عن مكنون عقله، وطفق علمـاء البشر يصـرفون من جهد البحث الدقيق فـى الكشـف عن قوالـب حياتـه الإجتماعيـة، مثـل مـا يصرف الأحيائيون نحو مستعمرات النّمل والنّحل، أمـا مـاهى طبيعتـه، فقد انقطـع لمدارستها الشـاعر والفيلسـوف واللاهوتي، بكـل مـا أوتـوا مـن همّـة وقدره، ولقد انكشف لنا الكثير من أمره، ولكن تبقـى الأكثـر ممـا لـم يُعرَف، فالإنسـان مـا يـزال قـادراً علـى الإفـلات مـن ثقوب الشباك التـى تحـاول أن نصـيده بهـا، إنـه عَقِد بحيث يتعذّر أن يحصـر فـى قالـب، شـقيت النّـواحي، بحيث يعسر أن يعرف ببساطة، إنّه مزيج من المتناقضـات المحيـرة، إنّـه مـا يزال بحق: جلال الكون ونكتته وسره)[1]

ينعت "سير راى لنكستر *Sir Rey Lanketer*" الإنسان واصفاً إياه "إبن الطّبيعه الثائر"، إلا أنّ داروين لم ينظر إلى الإنسـان من هذا المنظـار، كمـا لم ينظر إليه نظرة سينوت - الواردة فى الفقرة السابقة - بل لقد نظر إلية من زاوية أخرى، أقصر باعاً من تلك مع قصرها وضحالتها، لقد نظر إليـه من خلال الزّاوية التى رسمها فى كتابه "أصـل الأنـواع"، وقد فَسّرَ فيـه أسباب التطـور العضـوي، وقـام بتطبيقهـا علـى الإنسـان فـى كتابـه الثـانى "نشـوء الإنسان" والذى نشره بعد كتابه الأول بعدة سنوات. [2]

لقد اقتصـر داروين فـى كتابيـه عن أصـل الإنسـان وتطـوره بـالنّظر من زاوية واحدة افترضـها افتراضاً هي: أن الإنسان يعود فى أصله العضوى إلـى عالَم الحيوان. لم يمرّ بذهنه قط أنّ فيه ازدواجيّة، وأنه علاوة على تركيب الإنسان

(*1*) المرجع، الصفحات (48 - 49).
(*2*) المرجع، صفحة (49).

الجسدي، والذى قد يتشابه فى بعضها بعض المشابهة مع بعض الحيوانات، الاّ أنه يختلف عن الحيوان بانتصاب القامه وبجمال الخلقة، والأهم من ذلك العقل المميز، أى بالدماغ الصالح للربط[1] والذى يستطيع بواسطته إجراء عمليّة التّفكير ليحكم بها على الواقع وأن يتصرّف طبقاً لذلك الحكم، وأنّ هذا الإنسان به طاقات كامنة، تحوى الغرائز والحاجات العضويّة والتى يسعى لإشباعها كلما ثارت متطلبة الإشباع إشباعاً إنسانياً مميزاً، بعيد كل البعد عن طريقة الحيوان فى إشباع غرائزه.

نعـــم: لقد تجاهل داروين كل تلك الفروقات الجوهرية، وبذل كل طاقاته وامكاناته صارفاً كل جهوده لإثبات أنّ الإنسان بجسده حيوان: حيوان لأنه يتكاثر كما الحيوان..... وحيوان لأنه يتغذى كالحيوان... وحيوان لأنه يتنفس كالحيوان... وحيوان لأنه يبول ويغوط كالحيوان... ولأنّ له أعضاء جسدية كما فى الحيوان...

لقد ساق كل تلك الحجج الواهية، وتجاهل بل تغافل عن حقيقة أن بعضّ الحيوان يحوى فى تركيبه العضوى دماغاً كبيراً ضخماً، إلا أنه غير صالح، فى حين أنّ الإنسان يحوى فى تركيبه العضوى دماغاً ربما يكون أصغر حجماً من أدمغة بعض الحيوانات، إلا أنه دماغ صالح للربط وصالح لإصدار الأحكام... كما وتجاهل الغرائز الموجودة فى الإنسان وطريقة اشباعها المميزة عن طريقة اشباع الحيوان لغرائزه.

---

(1) الدماغ BRAIN: هو حشو المخ من أعصاب ونحوها، وفيه المخ والمخيخ والنخاع المستطيل، وهو مركز التفكير فى الجسم، وموقعه الرأس. والفرق بين دماغ الإنسان وبين دماغ الحيوان: أنّ دماغ الإنسان صالح للربط لإعطاء الحكم على الواقع، فى حين أنّ دماغ الحيوان ليس صالحاً للربط.

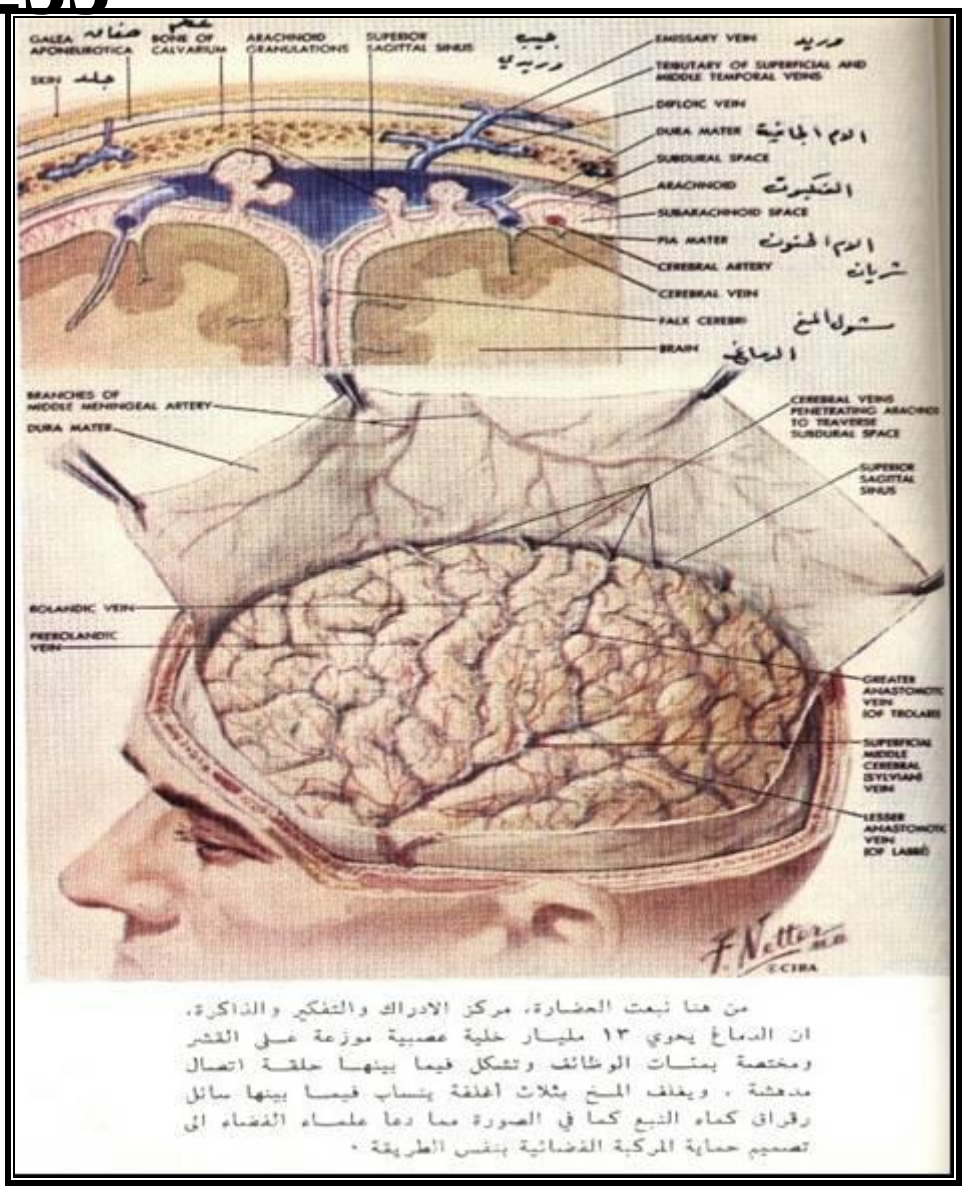

من هنا نبعت الحضارة، مركز الادراك والتفكير والذاكرة.
ان الدماغ يحوي ١٣ مليار خلية عصبية موزعة على القشر
ومختصة بمئات الوظائف وتشكل فيما بينها حلقة اتصال
مدهشة . ويغلف المخ بثلاث أغلفة ينساب فيما بينها سائل
رقراق كماء النبع كما في الصورة مما دعا علماء الفضاء الى
تصميم حماية المركبة الفضائية بنفس الطريقة .

إنّ الإنسان يحوى فى تركيبه العضوى دماغاً أصغر حجماً من أدمغة بعض الحيوانات، إلا أنه دماغ صالح للرّبط وصالح لإصدار الأحكام [1] .

(*1*) ارجع إلى صفحة (214).

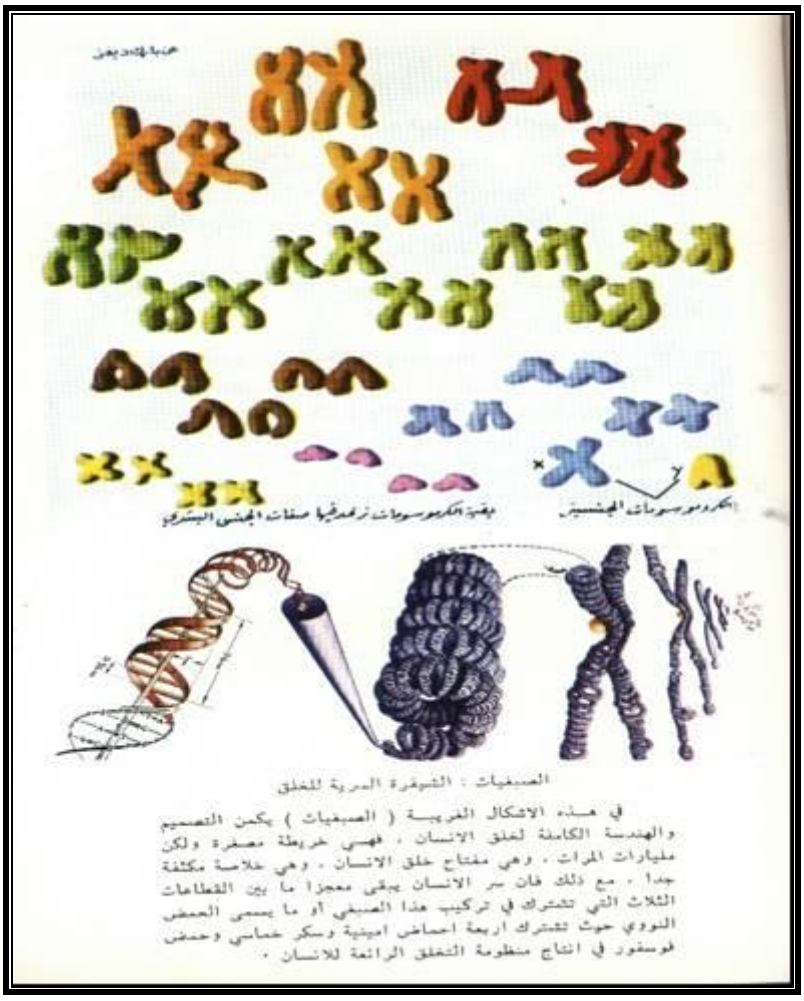

الصبغيات *Chloromosomes* بالغة الأهمية لأنها تحمل المورثات*genes* التى تحدد الصفات الوراثية المميزة (*1*) .

ولكن ما خطب صلة الإنسان بخالقه وهى إحدى تلك الغرائز - غريزة التدين - وما علاقة الحيوان بالروح التى هى صلة الإنسان بخالقه تعالى؟ إنّ ذلك ما لم يتعرّض لـه نفياً أو تأكيداً ولم يعره أى إنتباه.

لقد حدد موضوعه مسبقاً، حاصراً إياه فى دائرة أنّ الإنسان كائن حى

(*1*) ارجع إلى: هامش صفحة (61).

تجرى عليه سُنة وقوانين التطور جريها على كافة الأحياء التى هى دونه، وباختصار فإنّه قد وضع نتائج مسبقة لفكرته، ووضع القواعد لإثباتها، ومضى فى الاسترسال لإثباتها بأى وسيلة ممكنة، مُعْمِياً نفسه بل متجاهلاً الحقائق التى تبرهن على عكس نظريته وتتبرها تتبيراً.

نعـــم، لقد فَشل داروين وكل المنادينَ بمقولة التطور العضوى من الرّدِ على كل تلك الحقائق، حتى أنّ "إسماعيل مظهر" وهو من أشدّ المتحمسين لنشر مذهبهم المادي، ومترجم كتاب "أصل الأنواع" إلى اللغة العربيّة، قد تعرّض لتلك الحقائق فى مقدمته للكتاب المذكور، **حيث يقول**:

(لقد وَقَفَ إنسان القرن التاسع عشر يترنح من أثر الصدمة، هل يودع الإنسان معتقداته القديمة كلها ويدفنها فى ثرى الفكر كما دفن من قبلها معتقدات وأوهاماً؟ هل هو حيوان ولا شيء غير ذلك؟ ما خطب إنسانيته؟ وما خطب طبيعته المزدوجة التى رافقه الإعتقاد بها الألوف من السنين منذ أن كان كائناً قليل الحَول فاقد الحيلة يسكن الكهوف ويغتذى بما يجد، لا بما يشتهي؟ لقد انتهى "داروين" من أمر الجسد، فأثبت أنه جسد حيوان أرقى من غيره، ولكن ما خطب النفس؟ ماخطب الروح؟ وما خطب الغيب، الذى تحيط به أسبابه إحاطة السوار بالمعصم؟

كان مذهب "داروين" انتصاراً للمادية الصرفه، ولكنه انتصار لم يكن حاسماً ولم يكن قاطعاً، غير أنّ الفكر بعد أن اصطدم بصخرة التطور مضى يتخبط غير مستقر، ومضى زمن طويل قبل أن يدرك سواد الناس أن داروين إنما يتناول ببحثه العلمى عصر "ما بعد الخلية" التى هى أساس الحياة بكل صورها، ولكنه لم يعرض للبحث فى عصر "ما قبل الخلية" ليعرف كيف نشأت الحياة فى تلك الصورة البسيطة، ومن أين هبط ذلك السر الرهيب: سر الحياة الذى جعل من المادة الجامدة كائناً حياً.

إذن لم يكن انتصار المادية انتصاراً حاسماً قاطعاً، بل كان انتصاراً جزئياً، لم يتجاوز أنه تفسير لبعض وجوه من خصيات المادة، تناول داروين منه ناحية المادة الحيّة، أى المادة بعد أن دَبّت فيها الحياة، ولكن ما الحياة؟ ذلك هو سرّ الأسرار!

عندما شعر الماديون بأنَ انتصارهم لم يكن حاسماً، وأنّ الحياة وإن شئت فقل ماهية الحياة، هى الصخرة التى تتحطم عليها أسس المادية، قالوا بالتولد الذاتي، أى أنّ الحياة قد تتولد ذاتياً من مادة غير حيّة، غير أنّ ذلك لم يقم على شيء من حقائق العِلم، ولم يثبته الأسلوب العلمي، لأنّ العِلم إنما يثبت كما قال "باستيان": إنّ كل حى يتولد من حى مثله. وإذن فهناك حادث خطير وقع فاصلاً بين عصرين: عصر ما قبل الخلية، وعصر ما بعد الخلية، وفى الكشف عن السر الذى يختفى من وراء ذلك الحادث ينطوى مستقبل الإنسان كله، أيتجه إلى المادة؟ أم يتجه إلى الروح؟

لقد ظهر للباحثين أن للأحياء مقومات تبثها فيهم فطرة الحياة، وأنّ لجميع هذه المقومات مظاهر لم يعللها العِلم الطبيعى ولا عِلم الأحياء، ولا تعود كذلك إلى تفاعلات كيموية، **فما هى إذن؟** لقد عجز العِلم المادى عن أن يجيب على هذا السؤال حتى الآن]. (1)

إنّ تميز الإنسان بالعقل عن باقى المخلوقات، وسر بداية الأشياء وتوجه الإنسان الروحى نحو الإيمان بوجود خالق، والتى أشار إليها إسماعيل مظهر كما ورد سابقاً واصفاً إياها بأنها "سر الأسرار". كل تلك الأبحاث قد حَيّرَت داروين نفسه واصفاً إياها بالمشاكل العميقة كما ورد فى فى كتابه المنشور باسم" *life & Letters*" والذى يضم طرفاً من حياته وعدداً من رسائله إلى بعض العلماء المعاصرين له، **حيث يقول:**

---

(1) المرجع، الصفحات (59 - 60).

(إنّ ثمة مصدراً للإعتقاد فى وجود الله يرتبط بالعقل، ولـه فى نظرى أهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والأحاسيس، وهذا المصدر يأتى من الصعوبة البالغة - أو بالأحرى استحالة تخيل هذا الكون الفسيح الرائع الذى يشمل الإنسان بقدرته على النظر إلى الماضى البعيد وإلى المستقبل البعيد أيضاً - على أنه نتيجة للمصادفة البحتة أو نتيجة للضرورة. وحين أفكر بهذه الطريقة أشعر بأنه لا بدّ لى من البحث عن علة أولى لها عقل بصير يشبه على حدّ ما عقل الإنسان. وهذا يعطينى الحق بأن اوصف بأنى مؤمن بالله، وقد كانت هذه النتيجة واضحة فى ذهنى بقدر ما أتذكر فى الوقت الذى كتبت فيه "أصل الأنواع". ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الفكرة تضعف بالتدريج ولكن مع شيء من التّقلب والتّراوح، ولكن هنا يثور الشّك: هل يمكن أن نثق فى عقل الإنسان - الذى أعتقد كل الإعتقاد أنه نمى وتطور من عقل بسيط كعقول أبسط الحيوانات وأدناها - حين يستنتج مثل هذه الإستنتاجات الضخمة؟)[1]

ويرفع داروين يديه عند هذه النقطة مستسلماً - حسب ما يقوله داونز - ثم يعلن فى النهاية: (لا أستطيع أن أدعى بأننى ألقى بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العقيمة، فإنّ سر بداية الأشياء كلها غير قابل للحل، امّا فيما يتعلق بى شخصياً فإننى قانع بأن يكون موقفى هو موقف اللاإرادى حول هذا الموضوع)[2]

ونحن بدورنا نقول أنّ العقل الذى وهبنا إياه الله تعالى لا يقف عاجزاً أمام ما وصفه داروين بالمشاكل العميقة إن استُعمِلَ استعمالاً صحيحاً وباستنارة، حيث سيقود حتماً لحل عقد الإنسان جميعها، وأولها الإيمان بالله

---

(1) دورية (عالم الفكر)، المجلد الثالث، العدد الرابع (1973)، صفحة (7). - دورية (تراث الإنسانية)، المجلد التاسع، العدد الأول (1971)، صفحة (126). - ر. داو نز، كتب غيرت العالم، طباعة نيويورك (1956)، صفحة (162).

(2) المصدر السابق.

تعالى، **لذا** فقد خاطب الله تعالى العقل الإنسانى للتفكر فى مخلوقاته - بما فيها خلقه هو - ليستدل وليصل إلى الحقيقة الدامغة وهى الإيمان بالله تعالى الخالق الأحد الصمد، قال تعالى:{**أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ**}(1).

{**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**}(2)

{**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**}(3)

{**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**}(4)

---

(1) الغاشية: 17 - 21.
(2) الطارق: 5 - 8.
(3) فصلت: 35.
(4) المؤمنون: 91